المادة : **تاريخ البلاد العربية**

المرحلة : **الثانية**

قسم التاريخ

مدرس المادة : **د. إنعام حميد شرموط**

المحاضرة : **الثالثة**

عصور ما قبل التاريخ

وينحصر عصر ما قبل التاريخ المصري في المدة التي بدأ الإنسان يظهر فيها في وادي النيل إلى بداية الأسرة الأولى حوالي ٣٢٠٠ق.م.

وقد أسفرت البحوث التي قام بها العلماء في مدة الأربعين عامًا الأخيرة عن تقسيم هذا العصر الطويل إلى ثلاثة أقسام رئيسية، ولا يزال العصر الأول منها غير معترف به من كل رجال هذا العلم؛ إذ البعض يُقِرُّه وطائفة منهم تنكره:

- **العصر الأول:** ويطلق عليه اسم عصر ما قبل الحجري القديم «الأيوليتي»، وقد استعملت فيه أحجار الظِّرَّان كما وجدت في الطبيعة مع بعض التهذيب.
- **العصر الثاني:** ويطلق عليه اسم العصر الحجري القديم «الباليوليتي» هو عصر استعمال الحجر المهذب تهذيبًا بسيطًا بعد القطع، ومنه يتفرع العصر الحجري الحديث «النيوليتي»، وهو عصر الحجر المصقول بعد التهذيب.

- **العصر الثالث:** الذي ظهر فيه استعمال المعادن، ويطلق عليه عصر بداية استعمال المعادن «الأنيوليتي»، وقد استعمل في هذا العصر الحجر والنحاس والحديد لعمل الآلات جنبًا إلى جنب،

(٢-١)«عهد فجر العصر الحجري القديم»

لا جدال في أن الإنسان الأول عندما ظهر على سطح البسيطة، كان أول هم له أن يجد لنفسه سلاحًا يدافع به عن كيانه ضد الحيوانات التي كانت تحيط به ويعيش في وسطها، ولا بُدَّ أن أول ما فكر فيه من الأسلحة ما كان في متناوله، فمثلًا كان يقطع فرع شجرة ويهذِّبه ليدافع به عن نفسه، وكذلك كان يجمع ما حواليه من الأحجار الصلبة التي هيأتها له الطبيعة، ثم يهذِّبها بنفسه بعض الشيء ليجعل لها حدًّا قاطعًا ويستعملها في أغراضه،

وفي استطاعة الإنسان في مصر أن يجمع قطعًا عدة من آلات هذا العصر من هضبة الصحراء، ولكنها كذلك مشكوك في تاريخها، وسبب ذلك يرجع إلى أن فعل المؤثرات الجوية مثل الحر والبرد وتعاقب الليل والنهار، يحدث تفتت قطع من الظِّرَّان جديدة تشبه القطع الأيوليتية القديمة، وقد جمع الأستاذ «شفينفورت» قطعًا كثيرة من هذا النوع من محطات أبواب الملوك. على أن كثيرًا من هذه القطع يظهر فيها فعل يد الإنسان، ولكنا نجدها مختلطة بآلات من العصر التالي لهذا العصر، وهو

ما يسمى العصر الباليوليتي (العصر الحجري القديم)، وليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأنها من عصر أقدم، والواقع أنه لا توجد محطة مصرية قديمة أو حديثة إلا وفيها آلات صنعتها يد الإنسان وقطع من صنع الطبيعة نفسها، ثم استعملها الإنسان بمهارة، ولا نزاع في أن المبدأ القائل بالاقتصاد في استعمال القوى الإنسانية في الإنتاج، قد لعب دورًا عظيمًا في حياة الإنسان الأولى في مصر، كما كان الحال في البلاد الأخرى، ولا غرابة إذن إذا وجدنا أن الإنسان كان يستعمل القطع الطبيعية في الاستعانة بها على قضاء أغراضه في أول نشأته وفي فترة عدم درايته بالصناعات.

(٢-٢) العصر الحجري القديم

هذا العصر يعرف بعصر استعمال الحجر المهذب، وينقسم ثلاثة أقسام: وهي الحجري القديم الأسفل، ويشمل ما يقابله في أوروبا من الصناعات الشيلية[١] والآشيلية،[٢] ثم العصر الحجري القديم المتوسط، وفيه تسود الصناعات، الموستيرية Mousterienne[٣] وأخيرًا العصر الحجري القديم الأعلى، وقد سادت فيه الصناعة الأوريجناسية Aurignacienne[٤] ثم الصناعة السولوترنية Solutereenne[٥] ثم الصناعات المجدلية Magdalenienne.[٦]

(٢-٣) العصر الحجري الحديث

ويتلو العصر السالف عصر بداية المعادن، وهو عصر استعمال الحجر المصقول بعد التهذيب، وهذا العصر أقسامه مرتبكة ولا ضرورة للخوض فيها الآن.

(٢-٤) عصر بداية استعمال المعادن

وهو عصر الانتقال؛ إذ في خلاله بدأ الإنسان يستعمل المعادن، وقد توالى فِيه استعمال النحاس والذهب ثم البرنز فالحديد، على أن عهد استعمال الحديد في مصر كان شاذًّا بالنسبة للبلاد الأخرى، وذلك أن مصر في عهد أوج مجدها وسؤددها التاريخي بدأ يُستعمل هذا المعدن فيها، ولم يكن معروفًا من قبل.

(٢-٥) مدينة العصر الحجري القديم

يعد هذا العصرُ العهدَ الذي وُجد فيه أول أثر لبقايا الإنسان؛ إذ عثر فيه فعلًا على بعض عظام بشرية وعلى الآلات التي كان يستعملها الإنسان، غير أنه من المستحيل علينا أن نحدد في أي عهد وقبل أي عدد من آلاف السنين قبل الميلاد ظهر الإنسان في العالم، وكل ما يمكِن الجزم به في هذا الموضوع هو أن وجود الإنسان على ظهر البسيطة يرجع إلى أزمان سحيقة جدًّا، والتقديرات المعتدلة ترجع بظهور الإنسان إلى آلاف عدة من السنين، وفي خلال هذا العصر الطويل جدًّا قد حدثت تغيرات وتقلبات عظيمة ظاهرة جلية لا تقتصر على شكل الآلات وصناعتها ولا شكل الإنسان الذي كان يستعملها فحسب، بل تتناول كذلك التقلبات الجوية التي كانت تحيط به والتي كان من أثرها أن حدث تغير كلي في الحيوان والنباتات التي كانت تعيش وتنبت فيه، وهذا العصر الذي نحن بصدده يقع في أوائل الزمن الجيولوجي الرابع، وفيه حدثت في الجو تقلبات من بارد إلى حار كما أثبت ذلك علماء الجيولوجية.

ويتميز هذا الزمن بزحف الجليد الذي غمر الجبال الشامخة ثم تقهقر ثانية مما كان يسبب انخفاض درجة الحرارة، وكل ما يهمنا في ذلك هو أن العصر الحجري السفلي قد بدأ في نهاية عصر حدث فيه تقهقر جليدي، على حين أن العصرين الحجري المتوسط والأعلى يتفقان مع الزمن الجليدي المتتابع، وبظهور العصر الحجري الحديث تبتدئ فترة تقهقر جليدي جديدة لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا.

العصر الحجري القديم السفلي

يمتاز هذا العصر بجو حار رطب يشبه جو المناطق الاستوائية الآن، غير أنه كان يميل إلى البرودة التدريجية، وهذه الحالة في أوروبا تنطبق على أفريقيا الشمالية أيضًا، على أن الوصف الذي أوجزناه عن القطر المصري في فجر عصر ما قبل التاريخ يمكن تطبيقه على الأقاليم الواقعة شمال حوض البحر الأبيض المتوسط، ولدينا براهين عدة من حفريات العظام التي استخرجت من رواسب الزمن البلستوسيني (الزمن الرابع)، وقد عرفنا أنه كان ينمو في أوروبا في ذلك العهد حيوانات من ذوات الثدي، في وسط غابات كثيفة وعلى شواطئ مجاري مياه، وكانت عظيمة الحجم مثل جاموس البحر ووحيد القرن، والفيل الضخم والدب والضبع والغزال والحصان وغزال الأركس. وقد اختفى كثير من هذه الحيوانات الآن، على حين أن بعضها قد هاجر فيما بعد نحو الأقطار الاستوائية هاربًا من شدة البرد الذي اكتسحه في الزمن الذي تلى هذا العهد.

وعثر على بعض بقايا بشرية مختلطة ببقايا حيوانات معاصرة، غير أن ما عثر عليه لم يكن إلا أجزاء من جماجم مثل فك «مور»[٧] المشهور أو بعض عظام بسيطة، وقد سهَّل جو هذا الزمن المعتدل للإنسان أن يعيش في الهواء الطلق على شواطئ الأنهار والبحيرات أو في الغابات، وكان هذا الإنسان يتخذ أكواخًا من فروع الأشجار مسكنًا له. أما مقابرهم فيظهر أنها قلبت رأسًا على عقب بفعل الفيضانات التي كانت تخرِّب هذه الجهات تخريبًا ذريعًا، ولذلك لم يعثر منها على آثار تُذكر، مع أن هذه البقايا الضئيلة التي عثر عليها في الرواسب — وهي بلا شك — ذات قيمة عظيمة، قد عرفنا منها أن الجنس البشري في ذلك الوقت كان منحطًّا جدًّا، غير أن عدم العثور على هيكل تام لم يمكننا من إعطاء رأي قاطع في تركيبه الطبعي.

أما عن صناعة هذا العصر فإن معلوماتنا قد زادت؛ لأن بعض المواد التي استعملها إنسان ذلك العصر تكاد تكون غير قابلة للتلف رغم مر العصور. حقًّا إن الدبابيس ذات القبضة المصنوعة من الخشب، لم تحفظ لنا كغيرها من الأشياء المصنوعة من المواد القابلة للعطب مثل جلد الحيوان ولحاء الأشجار، التي كان يستعملها ذلك الإنسان غطاء له، ولكن أسلحة الصيد والحرب وكذلك الآلات التي كان يستعملها في سلخ فريسته كانت مصنوعة من حجر صلب وأرهف حدها، وقد قاومت هذه الآلات تأثير الزمن وبقيت إلى عصرنا هذا، وقد عثر عليها مهملة على شواطئ الأنهار مدفونة تحت طبقات سميكة من الحصا الذي دحرجته تيارات الماء السريعة معها، وكان إنسان ذلك العصر عندما يعوزه الظِّرَّان وهو أهم مادة لصنع آلاته، يستعمل بدلًا منه الكورتسيت أو الأحجار البركانية أو الحجر الجيري الأبيض الصلب، وأهم آلة كانت مستعملة في هذا العصر هي «البلطة» الغليظة البيضية الشكل، وقد تكون مثلثة ذات شفرات حادة تتصل بحد مرهف قاطع، وتصنع هذه الآلة من قطعة من الظِّرَّان طبيعية على شكل الكلى، وذلك بإزالة شظايا متعادلة من حروف قطعة الظِّرَّان هذه بوساطة أزميل، وهذه الآلة كانت عظيمة الخطر في يد المحارب، على أنها كانت كذلك تستعمل لأغراض أخرى، ويوجد نوع منها لم يهذب إلا من أحد وجهيه ويستعمل كمقطع لتخليص العظام من اللحم ولسلخ الجلود.

وخلافًا لهذه الآلات التي يطلق عليها ذات الوجهين Bifaces، والتي قد تصل أحيانًا إلى حجم عظيم، فإن إنسان هذا العصر استعمل شظايا بسيطة كان يحصل عليها بقطع كلية من الظِّرَّان تهمل

نواتها في النهاية، ويلاحظ دائمًا أن كل شظية تقطع بهذه الكيفية فيها بروز مستدير عند النقطة التي وقع عليها الكسر، الذي يترك أثرًا على هيئة تجويف في النواة نفسها، وهذه العلامة تعد بمثابة خاصية مميزة للمصنع الذي صنعت فيه، مما يثبت لنا أن هذه الشظية قد قطعت وهذبت قصدًا وذلك مما لا يوجد في الشظايا الطبيعية.

وهذه الشظايا مرهفة الحد كالموسى القاطع، ولذلك كانت تستعمل بدلًا من السكاكين، وأحيانًا تستعمل كمشط، وذلك بعد إجراء بعض إصلاح في أحد وجهيها أو في نهاية الشظية، وهذه الإصلاحات أو «الرتوش» لا تتناول الوجه العلوي من الشظية، ولذلك يطلق عليها اسم الآلات ذات الوجه الواحد، وكذلك يدخل تحت هذا النوع من الآلات ذات الوجه الواحد الشظايا التي كانت تصنع بهذه الكيفية، لتحضير الجلود والعظام التي كان يستعملها إنسان هذا العصر.

أما عن أخلاق هذا الإنسان وعاداته، فإنا لا نكاد نعرف عنها شيئًا قط، اللهم إلا أنه كان لا يختلف كثيرًا عن قبائل الأقزام الذين يتجولون في الغابات الاستوائية، ويعيشون على صيد البر والبحر.

وإذا كنا لا نعرف شيئًا عن هذا الإنسان من الوجهة الاجتماعية أو الخلقية والدينية، لأنها لا تزال موضع تخمين، إلا أننا من جهة أخرى يمكننا أن نحكم عليه من الآلات التي صنعها، والتي هي الآن في متناولنا؛ إذ تبرزه لنا كإنسان راقٍ يسيطر بذكائه على الحيوان الذي يشن عليه الحرب يوميًّا، يضاف إلى ذلك أنه كان في قدرته أن يخترع ويحسن كل ما هو في متناوله، فقد عرف كيف يوقد النار ويطهو طعامه، هذا رغم أنه كان لا يعرف إلى هذا الوقت صناعة الفخار، واستعداد هذا الإنسان وقدرته على أسباب الرقي يظهر جليًّا عندما ننتقل من طبقة إلى أخرى في القطاعات التي بحثت في الأماكن التي يرجع عهدها إلى العصر الحجري القديم، فمثلًا نلاحظ أن البلطة الثقيلة الخشنة الصنع التي توجد في أسفل طبقة من العصر الحجري تخفُّ تدريجيًّا في الطبقات العلوية، ويحل محلها آلات أحسن صنعًا، وبذلك تختفي الصناعة الشيلية الخشنة أمام الصناعة الآشلية التي أنتجت آلات تعد من فرائد الفن.

(٢-٧) العصر الحجري الحديث

على أن العصر الحجري الحديث نفسه مرتبط تمام الارتباط بالعصر الذي يليه، وهو عصر بداية استعمال المعادن، ولا يتميز العصر الحجري الحديث عن عصر بداية المعادن بوجود معادن مختلفة في كل، فالواقع أن النحاس والذهب كانا موجودين في كليهما غير أنهما كانا يستعملان في العصر الأول أدوات للزينة وبدرجة محدودة. أما في العصر الثاني فكانا يستعملان في أغراض شتى وبدرجة عظيمة وبخاصة النحاس، فإنه كان يستعمل في صنع الآلات بدلًا من الظِّرَّان، ويعد علماء الجيولوجية أن العصر الحجري الحديث يبتدئ في نهاية العهد البلوستسيني وبداية العصر الهيلوسيني؛ أي العصر الرابع في تكوين القشرة الأرضية، وهذا العهد هو في الحقيقة فجر الأزمان الحديثة؛ إذ فيه أخذت أحوال الحياة العامة للإنسان تتغير تدريجًا عن أحوال الحياة التي يخضع لها بنو البشر في أيامنا هذه.

وتتفق بداية العصر الحجري الحديث مع عصر تقهقر الجليد الذي ظل إلى يومنا هذا، ففي أفريقيا الشمالية أخذ الجو يصير أكثر جفافًا وأشد حرارة من العصر السابق، وقد أخذ ذلك يظهر في الهضاب الصحراوية التي بدأت تتكون منذ العصر الحجري القديم الأعلى. والواقع أن قلة الأمطار وشدة التبخر سبَّبَا نقصًا محسوسًا في نظام المياه، ولكن على الرغم من ذلك بقيت بعض جهات الصحاري معمورة، وبخاصة الأماكن التي حول عيون الماء والبحيرات التي تكونت من مجاري مياه ضئيلة. أما باقي الجهات فقد انقلبت فيها الغابات اليانعة التي كانت تسبغ عليها بهجة ورونقًا إلى أرض عشبية لا يستطيع الإنسان أو الحيوان البقاء فيها، وفي خلال هذه المدة أخذ وادي النيل يكوِّن ببطء شكله الحالي، وكذلك بدأ النهر يسير في النظام الذي هو عليه الآن، وقد كان هذا النهر

في خلال تكوينه يترك رواسبه في الوادي الذي يغطيه بالمياه، ثم ينكمش تدريجيًّا حتى أصبح على ما هو عليه الآن؛ إذ كان في كل عام يفيض على جانبيه في تاريخ معين لمدة ثلاثة أشهر، ويترك الغرين الذي يجلبه معه من منابعه مما يكسب الوادي خصبًا، وعند انتهاء هذا الفصل ينكمش مجرى النيل، ثم يترك مجموعة من المستنقعات على حافة الصحراء حيث قد خلفت مياهه الجزء الأعظم من الغرين على السهل، وفي هذه المستنقعات كانت تنبت بكثرة النباتات المائية وبخاصة السَّقي «البردي» الذي كانت تأوي إليه الحيوانات الخطرة كجاموس البحر والتمساح، أما باقي السهل فكان يغطى كل عام بنباتات يانعة تنعدم وتزول بسرعة في خلال تسعة الأشهر التي كان الحرُّ فيها مهلكًا، وكانت مخلفات هذه النباتات تئوي الحيوانات والحشرات المؤذية، وقد تكونت في مصب النهر القديم المعروف بالدلتا طبقات غرين وكانت لانخفاضها مؤلفة من مستنقعات عدة مزدحمة بالبردي ولم تكن حدودها معينة، وذلك بسبب البرك التي تغمر معظمها.

أما مساكن الإنسان منذ بداية هذا العصر فإنها تتمشى مع التغيرات الجوية التي سنبينها، فقد هاجر إلى وادي النيل بجوار مجاري المياه الغزيرة التي لا تزال موجودة، كل سكان وديان البيداء وصحراء العرب، وهؤلاء كانوا البقية الباقية من قبائل أخذت تجوب في خلال الأزمان السالفة الجبال والهضاب التي كانت تغطيها الغابات البِكْر. والواقع أن العصر الحجري الحديث هو العصر الحقيقي الذي أهلت فيه مصر بالسكان.

أما القرى فكانت واقعة على المرتفعات البسيطة التي على حافة الوادي، وكان الجزء الخصب منه في هذا الوقت أقل انخفاضًا واتساعًا مما هو عليه الآن بعد أن غمره الغرين مدة اثني عشر ألفًا من السنين تقريبًا، ولا شك في أن هذه القرى قد غطيت الآن بالطبقات السميكة من الغرين، الذي لا ينفك يزداد من قرن لقرن ويمكن العثور عليها لولا أن ارتفاع منسوب المياه في الطبقات الأرضية، الذي نلاحظه الآن، يحول بيننا وبين الوصول إلى ذلك، وهي موجودة غائرة في سفح التلال أو المرتفعات الصناعية في كل المدن المصرية التي ظهرت في فجر التاريخ، وتقع عادة بعيدة عن النيل وقريبة من الصحراء، ويظهر لنا فيها أسس يرجع عهدها إلى العصر الحجري الحديث، ولحسن الحظ عثر على بعض قرى نيوليتية واقعة في الصحراء أخطأها غرين النيل، ونخص بالذكر قرية العمري، وهي «رأس حوف» القريبة من القاهرة، وقد سميت العمري نسبة إلى الأستاذ العمري الذي عثر عليها حديثًا، وقد مات وهو في ريعان شبابه، وكذلك مرمدة بني سلامة الواقعة على حافة الدلتا الغربية، ثم ديمة، وكوم أوشيم، وقصر الصاغة، والمواقع الأربعة الأخيرة في مديرية الفيوم. أما في الوجه القبلي فقد عثر على مدينة جديدة في بلدة «دير طاسا» وفي طوخ والقطارة والجبلين.

وأهم من هذه البلاد من الوجهة الأثرية المقابر التي من العصر الحجري الحديث فإنها محفوظة وواقعة على حافتي الصحراء على كِلَا جانبي النيل؛ إذ هي بطبيعة الحال بعيدة عن الفيضان، يضاف إلى ذلك ما يعثر عليه مهملًا على سطح الصحراء من بقايا الصناعات بالقرب من القرى والمقابر، مما يدل على الأماكن التي كان لا يزال الإنسان يصنع فيها الظِّرَّان.

ويمتاز العصر الحجري الحديث بأنه عصر نهضة الصناعة، وقد كان ذلك نتيجة تحول الإنسان في ذلك العهد من عيشة الصيد إلى عيشة الرعي وفلاحة الأرض، ولذلك قامت نهضة حقيقية في صناعة الظِّرَّان؛ إذ خلفت الأشكال المكروليتية التي كانت في العصر الجفسي الأسلحة الكبيرة من الظِّرَّان، ويجب أن نشير هنا إلى أطراف الحراب والنصال المهذبة تهذيبًا جميلًا من كِلَا الوجهين، وكذلك سنان السهام المصنوعة برشاقة ودقة.

أما الآلة التي يتميز بها هذا العصر أكثر من غيرها، حتى إن اسمها أصبح أحيانًا يطلق على هذا العصر فهي الفأس المصقولة، وهي قطعة من الظِّرَّان على شكل الكلى المستطيلة وهي منحنية من أحد طرفيها لتصير قاطعة، وقد كان يركب فيها مقبض، ولذلك كانت تستعمل كفأس أو قَدُوم.

وبجانب الظِّرَّان كان يستعمل كذلك العظم في عمل أسنة الخطاطيف، ولعمل آلات كالمنحت أو المنقش والإبر لشغل الجلود، ومن صناعة هذا العصر كذلك النسيج وعمل الحصر والفخار الذي لم يعثر على أي نوع منه قبل هذا العهد، ومن المدهش أنه انتشر في هذا العصر بسرعة، وأصبح استعماله منتشرًا انتشارًا عامًّا، ففي مصر السفلى عثر في مرمدة بني سلامة على أقدم فخار عمله الإنسان دون استعمال أية آلة في صنعه، وأول نوع ظهر لنا كان خشن الصنع وليس عليه أي نوع من الزخرفة، اللهم إلا في القليل النادر، فإنه كان يشاهد على حافة الإناء أو مقبضه شريط محفور بالأصبع، وبجانب هذا الفخار ظهر نوع آخر دقيق الصنع لونه أحيانًا أحمر وأحيانًا أسود، وكان يصقل بكل اعتناء قبل حرقه، وأشكال هذا الفخار متعددة وتشمل كل أنواع الأطباق والأكواب والجرار والأباريق، ويلاحظ أن بعض هذه الأواني لها أزرار بارزة أو ثقوب في جوانبها، وذلك ليعلق فيها خيط تحمل به.

بدأ الإنسان في هذا العصر يعيش عيشة الرعاة والفلاحين، وأخذ يسكن القرى بعد أن كان جائلًا من مكان لآخر، وذلك يرجع لتغير حالة الجو في أفريقيا الشمالية، وقد نشأ عن هذا الجفاف المتوالي في هذه الجهات، بسبب قلة الأمطار أن اختفت النباتات والأشجار التي كانت تنبت على الهضاب المترامية الأطراف تدريجًا، وكذلك أصبحت مناطق الصيد قليلة، ومن أجل ذلك أخذت القبائل في الأقاليم التي كانت تسكن فيها أو تجول في أنحائها تتنبه إلى خطر الجوع من قلة حيوان الصيد، فبدأت تربي الحيوانات القليلة الخطر كالثور والخروف والماعز والخنزير، لتكون ذخيرة لهم من اللحوم الحية، وكذلك أخذت القبائل تزرع الحبوب المغذية وبخاصة الشعير.

ولما ازداد جفاف تلك الهضبة الشاسعة، ولم تبقَ منابع ماء في صحراء العرب أو في صحراء لوبيا، أخذ أفراد القبائل النيوليتية يجتمعون في قرى في وسط أراضيهم التي يتعيشون منها برعي الماشية أو بالزراعة في وادي النيل، وكانوا لا يزالون يحترفون صيد البر والبحر وذلك اقتصادًا لمواشيهم الأليفة من جهة، وليقضوا على الحيوان البري المفترس، وعلى الحيوانات المائية الضارة مثل جاموس البحر الذي كان يعد خطرًا يهدد حياتهم على الدوام من جهة أخرى، غير أن الصيد لم يكن عندهم من الأمور الحيوية بل كان شيئًا ثانويًّا، والواقع أن هذه القبائل أصبحت أهل فلاحة بالمعنى الحقيقي، وكانت قرى العصر النيوليتي مؤلفة من عدد من العشش المنفصل بعضها عن بعض، ويحتمل أنها كانت مسورة بسياج مؤلف من الأوتاد حماية لها، وقد عثر على قرى من هذا العصر في مرمدة بني سلامة، وهي على نوعين مختلفين تمام الاختلاف، فبعضها يشبه عشش الفلاحين الحاليين التي تقام في وسط المزارع وقت الحصاد، وكانت العشة تتركب من جدران مصنوعة من الغاب يحفظها من التداعي أوتاد مثبتة في الأرض، وإذا كانت العشة مبنية من جهاتها الأربع كانت تأخذ في الغالب شكلًا بيضيًّا منظمًا بعض الشيء، وأحيانًا تكون هذه العشش على شكل ستارة مقوسة المنظر محكمة القفل من الجهة التي يهب منها الريح، وبخاصة الجهة الجنوبية الغربية أو الجهة الشمالية، ولا شك في أن وجود مواقد في هذه العشش وكذلك وجود أوان مصنوعة من الفخار يدل دلالة واضحة على أنها كانت تستعمل سكنًا للإنسان. وقد عثر بالقرب من هذه العشش على أسوار بيضية الشكل لا تزيد مساحتها عن متر في نصف متر تقريبًا، ويحيط بها جدار لا يزيد ارتفاعه عن نصف متر، ويستدل منه على أنه لم يكن فوقه مبنى آخر، ولا يبعد أنه كان يُستعمل مخازن لحفظ الحبوب، وكانت جدران هذه المخازن تقام من طين معجون كتل منه الواحدة فوق الأخرى على غير نظام، أما رقعة العشة فإنها كانت تغطى بطبقة من الطين المعجون، وكانت تحفر بعض الشيء على شكل صحن، وتجهز في الجزء المنخفض منها بإناء مثقب مثبت في الأرض لجمع المياه وتصريفها. أما أساس العشة فكان يثبت في الأرض على عمق لا يزيد عن خمسة وعشرين سنتيمترًا، وكان يوجد في العشش الممتازة قصبة ساق جاموس البحر مثبتة عموديًّا في الجدار الداخلي، لتكون بمثابة سلم لتسهيل الدخول فيها، وقد وجدت بقايا حصر كانت على أرض سطح العشة، ولا ريب في أن هذه الأكواخ أو العشش كانت تستعمل مأوى لأهالي مرمدة القدماء يحتمون فيها من العواصف والمطر، ويبيتون فيها ليلًا عند اشتداد البرد، ومن المدهش أنه لا يوجد في هذه العشش أي أثر من آثار الإنسان ولا آية آلة من الآلات التي كانت تستعمل في

الحياة المنزلية. أما سقف هذه العشش القليلة الارتفاع، فكان يصنع من حصير سميك من الغاب يوضع أفقيًّا، وفي حالة واحدة عثر على مكان عمودين متقابلين في إحدى هذه العشش، ومن المحتمل جدًّا أنهما كانا قد وُضِعَا لأجل أن ينصب عليهما جلد حيوان لتغطية السقف، وربما كان ذلك أول محاولة لعمل خيمة يحمي إنسان هذا العصر فيها نفسه من زمهرير البرد وقيظ الحر.

أما في قرية العمري — السالفة الذكر — فإن عششها وجدت على شكل مستدير وفي وسطها موقد، وعلى مقربة من هذه العشش كانت تقام سلات عظيمة من الحصير المجدول لها غطاء، ومدهوكة بغرين النيل كانت تستعمل مخازن لحفظ الحبوب.

أما المدافن النيوليتية فكانت كالتي في مرمدة تحفر في القرية نفسها على مقربة من الأكواخ، وكانت تحفر كلها في مكان خاص — كما هو الحال في العمري وفي كل الوجه القبلي — بالقرب من القرية على حافة الصحراء بعيدة عن فيضان النيل، وكان كل قبر على شكل حفرة بيضية المنظر كالكوخ نسه، وكانت الجثة توضع راقدة على الجانب الأيمن غالبًا في قرى الوجه القبلي، أما في الوجه البحري فكانت توضع على الجانب الأيمن مثبتة بحيث تضم الركبتان نحو الصدر في معظم الأحيان، أما وجه المتوفى فكان يتجه نحو المساكن، وقد عثر أحيانًا على جثث موضوعة على حصير أو ملفوفة في جلد أو حصير، وقد لوحظ في مرمدة بني سلامة أن يد المتوفى كانت توضع بالقرب من فمه، وأحيانًا شوهد أن إحدى أصابعه كانت في أسنانه، وكذلك لوحظ أن حبوبًا من القمح كانت مبعثرة في يده أو حول رأسه، وفي بعض المقابر عثر ضمن محتوياتها على أوان عادية ولوحة لطحن مادة الزينة وعلى آلات من الظِّرَّان، وهذه المقابر لم تكن فوقها مبان أخرى. هذا خلاف قرية العمري التي كان يعلَّم فيها القبر بعدة أحجار مكومة بعضها فوق بعض، وقد استعمل كثير من هذه المقابر لدفن أكثر من واحد من أفراد الأسرة، وفي هذه الحالة كان يجهز مكان في القبر للقادم الجديد، وذلك بجمع عظام الموتى القدماء ووضعها بعناية في جانب من القبر، وهذه العادات المأتمية التي تدل على أن القوم كانوا يعتقدون بحياة أخرى هي المصدر الوحيد لدينا عن معتقدات العصر النيوليتي، ولا يبعد قط أن تكون هذه العادات النيوليتية التي عثر عليها في هذه القبور، هي التي نهج على منوالها قدماء المصريين وبقوا يسيرون عليها في كل عصور التاريخ الفرعوني مع إدخال تحسينات عليها. أما من جهة ديانتهم الحقيقية وآلهتهم وعباداتهم فإننا لا نعرف عنها شيئًا قط، وذلك أمر طبيعي؛ لأن الكتابة لم تكن معروفة بعد.

ومن المدهش أن روح الفن في هذا العصر كاد يكون منعدمًا، وربما كان السر في ذلك أن إنسان هذا العصر كان موجهًا كل همه إلى تحقيق الأشياء العملية، فكانوا يصنعون الفخار ليستفيدوا منه لا للزينة، وكذلك كانت حليهم كالقلائد والأساور التي تصنع من العظام أو الطين المحروق نادرة وساذجة، ولا يظهر فيها أي ذوق فني، ولكن رغم انعدام الروح الفني في هؤلاء القوم بالمعنى الحقيقي فإنا نجد الرشاقة الفنية في بعض الأواني وبعض سنان الحراب، مما كان يبشر باستعدادهم للذوق الفني الذي نما فيهم فيما بعد، ومنذ ذلك العصر نشاهد بعض علامات منها نستخلص أن مدنية وادي النيل، كانت تنقسم قسمين متميزين عن بعضهما، وينحصر القسم الأول في الفيوم والدلتا والثاني في الوجه القبلي، وتمتاز مجموعة المدنية الشمالية بأنها أقدم من مدنية الوجه القبلي وأكثر تقدمًا، وهي التي ظهرت فيها سنان الحراب الفاخرة المهذبة على شكل «ورق الغار» الذي ورد ذكره — فيما سبق — وتعد هذه السنان والبلط المصقولة التي توجد في كل مكان الآلات التي يمتاز بها هذا العصر، وقد وجدت أدلة كثيرة في بحوث أخرى تثبت هذه الحقيقة.

مجموعة آلات من الظِّرَّان تمثل العصر الحجري الحديث.

عصر بداية المعادن

يمتاز عصر بداية استعمال المعادن بظهور صناعة جديدة، غطت على صناعة الظِّرَّان، وأعنى بذلك صناعة المعادن؛ إذ وجدت في هذا العصر آلات وحلي من النحاس والذهب في بادئ الأمر، ثم عرف فيما بعد استعمال الشبه «البرنز»، وباستعمال المعادن أخذ الإنسان الأنيوليتي يستغني تدريجًا عن صنع آلاته من الظِّرَّان والأحجار الصلبة الأخرى التي كان يستعملها في العصور السابقة. على أن صناعة الظِّرَّان لم تدرس جملة، بل بقيت بعض الشيء حتى في العصور المصرية التاريخية؛ وذلك لأن المصري كان بطبعه عبدًا للتقاليد والعادات، فكان يستعمل الظِّرَّان في أوج مدنيته سنانًا للسهام وغير ذلك. هذا العصر قد أطلق على العهد الذي سبق بداية التاريخ أي عهد ظهور الكتابة في مصر.

والواقع أننا إلى الآن في كل بحثنا عن مدنية ما قبل التاريخ في العصور القديمة، لم نجد مميزات بارزة يمتاز بها وادي النيل عن باقي ممالك العالم، اللهم إلا بعض خصائص قليلة، ولكن من جهة أخرى لاحظنا على وجه عام أن مدنية الوادي تتفق في مجموعها مع المدنيات الأوروبية في تلك العهود السحيقة في القدم، وكذلك تتمشى بوجه خاص مع عصور ما قبل التاريخ العام في أفريقيا الشمالية.

ومع أن عصر بداية المعادن في أوروبا يتفق مع عصر ظهور المعادن في وادي النيل، إلا أننا نشاهد من جهة أخرى أنه قد ظهرت فيه مميزات خاصة معلمة، أخذت تزداد وضوحًا، حتى إنها صبغت ثقافة هذا العصر بصيغة أصلية، وأعطته لونًا خاصًّا ميزه عن الممالك المجاورة، ويمكن تشبيه هذه المدنية الخاصة بانبثاق غصن ناشئ أينع في أصل شجرة في شيخوختها، فأزهر وأثمر ثمارًا مختلفة أنواعها، وهذه الحياة الجديدة التي انبعثت في البلاد دب دبيبها في كل نواحي الفن والصناعات، كصناعة الفخار، وفي حفر العاج والخشب، وتهذيب الظِّرَّان، وصنعه آلات بلغت الدرجة القصوى في الإتقان.

ويرجع الفضل في إبراز هذه الثقافة المصرية من مكمنها في بدايتها إلى جهود العلماء الذين وقفوا حياتهم عدة أجيال على القيام بالحفائر، التي أنتجت العناصر التي منها تتألف تلك الثقافة، لذلك كان لزامًا علينا قبل أن نبدأ في درس هذه المدنية الأنيوليتية أن نمر سريعًا بكلمة موجزة على أعمال هؤلاء الباحثين في الحفر والتنقيب.

وأول من فتح الطريق في هذا المضمار هو الأستاذ «فلندرز بتري»، وذلك في عام ١٨٨٩ عندما قام بحفائر في اللاهون «كاهون»١٠ وغيرها عند مدخل الفيوم، ثم تابع أعماله في ميدوم، فطوخ، فالبلاص. وكذلك قام العالم «دي مرجان»، «وأملينو» الفرنسي، ثم «ماك إيفر»، «وجارستانج»، بحفائر في نقادة، و«العرابة»، والكاب، وغيرها من المواقع الأثرية.

أما في بلاد النوبة فقد قام الأستاذ «ريزنر» بحفائر في المواقع التي كان يهددها تعلية خزان أسوان، وقد وصف لنا البحاثة «ستون كار» مصنعًا عظيمًا عثر فيه على سكاكين ذات وجهين فخمة الصنع وذات أحجام خارقة للحد المألوف، ويقع هذا المصنع في «وادي الشيخ» بالقرب من بلدة مغاغة بجوار الآبار القديمة التي كانت تحفر لاستخراج الظِّرَّان.

وفي عام ١٩٢٤-١٩٢٥ بدأ المستر «برنطون» بعمل حفائر في جبانات بالقرب من بلدة البداري الحالية، وقد أماطت بحوثه اللثام عن صفحة جديدة في تاريخ ما قبل الأسرات في مصر. أما في الدلتا فقد قام «برشيا» العالم الأثري الإيطالي بحفائر في كوم القناطر، وهي أول محطة كشفت من هذا العصر، وقفا أثره الأستاذ «ينكر» ببحوث في تل اليهودية بالدلتا أيضًا، وحديثًا كشف كل من الأستاذ مصطفى عامر والأستاذ «منجين» عن محطة هامة في العصر الأنيوليتي في المعادي بين القاهرة وحلوان.

أما الصحراء فإن الأبحاث لم تقم فيها على قدم وساق، كما كانت في الوادي نفسه، ومع ذلك فإن البعثات القليلة التي بحثت فيها قد أسفرت عن بعض نتائج، فالبعثة التي قام بها الأمير كمال الدين في الصحراء حتى «جبل عوينات» عثر فيها على محطات مما قبل الأسرات، وجدت فيها أسلحة وسكاكين عظيمة الحجم من الحجر النوبي، وبالقرب منها عثر على أرحاء وأجران مصنوعة من حجارة ضخمة، وذلك برهان جديد على أنه كان يوجد في هذه الجهات واحات، ولكنها طبعًا قد اختفت بجفاف العيون التي كانت تغذيها، ولا مراء في أنها كانت يانعة في هذا العصر، ومن المحتمل جدًّا أنها كانت لا تزال آهلة بالسكان في العهد الفرعوني.

وقد عثر حديثًا العالم «بوفييه لايبير» على جبانة من نوع خاص في صحراء العرب على مسافة قريبة من القاهرة تشبه في أوروبا ما يطلق عليه اسم دلمن Dolmens، وكل واحد من قبورها يتألف من حجر عظيم مستوي السطح موضوع على حجرين عموديين، وهو أول شيء من هذا النوع عثر عليه في مصر، وهذه المقابر قد أقيمت على حافة وادي التيه، ولما كان وجه الشبه بين هذه المقابر ومثيلاتها في أوروبا عظيمًا فقد نسبها الأب «بوفييه» إلى العصر الأنيوليتي، غير أنه يظن كذلك أنها قد تكون صنعت في عصر متأخر عن ذلك.

ولما كانت الكتابة منعدمة في العصر الأنيوليتي حتى ظهور الأسرة الأولى، كان من الصعب على المؤرخ أن يضع تواريخ مؤكدة للمدنيات المتتالية التي مرت فيها مصر في أقدم عهودها، لذلك يجب أن نكتفي الآن بأقل الفروض. إذ الواقع أن بداية هذه المدنية ترجع بنا إلى عهود يكاد مقدار ألف سنة فيها، لا يعد بالشيء الخارق للعادة من حيث الزمن، ومما يؤسف له أن نهاية هذا العصر الذي هو في الواقع بداية العصر التاريخي لم يتفق عليه بصفة قاطعة للآن بين علماء الآثار، بل الأمر تخطى ذلك في النزاع، حتى إن كل تأريخ قبل عام ١٥٨٠ق.م في التواريخ المصرية موضع شك، ولا أدل على ذلك من أن السير «فلندرز بتري» قدَّر عُمْر المدنية البدارية بنحو ١٠٠٠٠ إلى ١٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، على حين أن أثريين آخرين قدروا عمرها بنحو ٥٠٠٠ سنة. على أن مثل هذه التواريخ لا تخرج عن أنها محض تخمين، ولا ترتكز على أساس علمي ومع أنه كان من المتعذر وضع تاريخ مؤكد لبداية عصر ما قبل الأسرات أو نهايته، فإنه من الممكن أن يقتفي الإنسان تتابع الخطوات المختلفة التي حدثت في خلال هذا العصر، وهذا الإمكان قد نشأ نتيجة للبحوث التي قام بها المستر «فلندرز بتري» في «ديو سبوليس برفا»[١١] لتتابع تاريخي خاص في أنواع الفخار كشفت عنه حفائره، وذلك أنه لاحظ أن نوعًا خاصًّا من أواني الفخار كان يحدث فيه انحطاط منظم، وذلك أن البروز الذي كان في الأصل بمثابة يد الإناء، أخذ في التلاشي تدريجًا حتى أصبح لا يزيد عن خط متموج لا معنى له حول رقبة الإناء، وهذا الانحطاط في يد الإناء صحبه تدهور مشابه له في شكل الإناء العام، ولذلك كان من الممكن أن يضع الإنسان تتابع تاريخيًّا لكل الأواني التي من هذا النوع، وبالوصول لهذا الترتيب كان من السهل أن يجد الإنسان أدوات أخرى من نوع هذه الأواني قد تدرجت في التغير.

وقد اتخذ أساسًا للتغير في هذا النوع من الفخار فترات معينة تبتدئ برقم واحد وتنتهي برقم مائة، وقد ترك الفترة من رقم ١–٢٩ خالية لما عساه أن يكشف من فخار أقدم من الأنواع التي عثر عليها في قبور قديمة. أما الفترة بين ٣٠–١٠٠ فإنها تمثل ما قبل الأسرات وأوائل عصر الأسرات، وقد صار من الممكن إذن أن يضع الإنسان في الفترات المتتابعة مجموعة هذا النوع من الفخار حسب طبقته المختلفة في القدم، فإذا كشف قبر مما قبل الأسرات، ولم يكن من الممكن وضع تأريخ محدد له، فإن مكانته في التأريخ التتابعي يمكن الوصول إليها في الحال، وذلك بمقارنة الفخار الذي عثر عليه فيه بالطبقة المقابلة للفخار الذي اتخذ نوعه أساسًا.